القرآن أستاذ محمد
نظرة فى عوامل تكوينه الأدبى

يتحدثون عن المؤثرات المهمة فى تكوين الأديب ، إذا أرادوا أن يحللوا حياته الأدبية ، فيبحثون عن مصادر إلهامه ، وعوامل إبداعه ، ويرجعون ذلك إلى بواعث داخلية من استعداده الخاص ، وتكوينه الذاتى ، وخارجية من تأثير البيئة فى اتجاهه ومنحاه . ولابد لنا أن نبحث عن هذه المؤثرات فى مجال يتحدث عن أفصح البلغاء.

لقد اختار الله محمدًا ﷺ من بين آلاف الفصحاء من قومه ؛ ليعجزهم بفصاحة القرآن ، ووكل إليه أن يفسر كتابه ، ويبين وحيه حين قال فى محكم آياته : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] ، وحين قال : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾[2] ، وحين قال : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[3] .. إلى غير ذلك من الآيات التى تنطق بمهمة الرسول فى الإبلاغ والتبيين والهداية ، فإذا علم أن هذا التبيين كان لقوم يتصاولون بالبيان ، ويتقارعون بالفصاحة ، فلابد أن يكون الذى يتولى هدايتهم من الظلمات إلى النور بالبرهان

(١) سورة النحل : ٤٤ .
(٢) سورة مريم : ٩٧ .
(٣) سورة آل عمران : ١٦٤ .

والمنطق ، أشدهم عارضة وأقواهم حجة . ولابد أن يكون الذى اختاره لهذه الهداية، قد مكن له فى منبته وفى نفسه من عوامل السداد والتوفيق ، ما يحرز به الفلج الحاسم فى ملأ لُدٍ أنبياء .

أجل .. لقد مكن الله له فى منبته ونفسه بما بهر به العقول إقناعًا وإفحامًا ، ولم يكن محض الصدفة العابرة أن يختاره الله من بنى هاشم بن عبد مناف بن قصى ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى ، فكل هؤلاء الأجداد قد توارثوا البلاغة وكانوا رؤساء فى أقوامهم يقولون فيُسمعون ، ويُسألون فيجيبون ، وكانت الرئاسة القبلية فى الجزيرة العربية بعامة ومكة بخاصة ، ترتكز على عوامل بارزة من الشجاعة والكرم والبيان ، فكل رئيس فى قومه لا يحتل مكان الصدارة إلا إذا سال فناؤه بالخير للمعتفين ، وجرؤ قلبه بالبأس والشجاعة غداة الروع ، وعرف كيف يفصل فى المآزق المشتبهة بالقول الجزل . هذه هى عناصر الرئاسة العربية كما اتضحت فى أسرة (كعب بن لؤى) . وقد بدأنا الحديث به لأن كتب العهد الجاهلى قد تحدثت كثيرًا[1] عن زعامته ، واجتماع العرب إليه فى كل جمعة ، ليأمرهم بالطاعة والكف عن الشر ، وسمى هذا اليوم يوم الرحمة أو يوم العروبة[2] فكان يوم عيد قومى لاجتماع القبيلة ، ويوم عيد دينى لزيارة البيت ، ولا يتم ذلك إلا لعظيم يأتمر بأمره العرب ، وقد حافظوا على تاريخ وفاته ، فأرخوا به حتى كان عام الفيل فمحا من قبله من ذكريات المجد ، ثم جاء حفيده (قصى بن كلاب) ، فأخذ حيازة البيت الحرام فى يده ، وأنشأ دار الندوة بمكة فكان أول من فطن إلى الحكم الشورى من العرب ، ويروى الثقات أنه هو الذى أسس مدينة مكة ، وقسمها بين قريش وخزاعة ، وجمع شملهم ولمّ عزوتهم ، ولم تكن مكة قبل قصى سوى معبد بدوى قائم فى الصحراء فصنع بها قصى أكثر مما صنع (تيزيو) لأثينا و(روموليو) لروما ،

(١) « بلوغ الأرب » ، ج ٣ ، ص ٢٨٢.
(٢) « ثورة الإسلام » ، ص ٢٤٠.

و(أبو جعفر المنصور) لبغداد ، وكان خطيبًا لا يبارى تنوقلت على بعد الأمد بعض أحاديثه ، حتى إذا مات حزنت عليه قريش حزنًا لا يزال يتردد صداه فى الشعر العربى القديم ، وقد سمى مجمعًا ؛ إذ جمع الله به القبائل من فهر ، فنزلوا بطحاء مكة فى الشعاب ورءوس الجبال ، ثم جدد بناء الكعبة إذ تآكلت أحجارها وكادت تصير إلى أنقاض ، وجاء ولده (عبد مناف) فاحتل مكان أبيه فى رياسة دار الندوة ، وكان حليمًا لا ينطق إلا بما يأمر بالمعروف من صلة الرحم وذم الحروب والغارات ، أما ولده (هاشم) فقد ملك بعد أبيه الرفادة والسقاية ، وكان يصنع الطعام لحجاج البيت ، وكان إذا أهل هلال ذى الحجة من كل عام ، قام إلى الكعبة فخطب الناس وحضهم على إكرام الحجاج ، وأعلن أنه فتح بيته للوافدين ، وسارت له فى ذلك أقوال ترويها كتب الأدب ، وهو بعد والد عبد المطلب الجد الأول للرسول ، وما حديث عبد المطلب فى رئاسته وفصاحته ببعيد .

أسهبنا بعض الشىء فى بيان السمات المتواترة فى رجال النسب المحمدى ، لنعلن أن ما اشتهروا به من الفصاحة والمجادة قد خلص إلى سليلهم العظيم ، فكان من عوامل سيادته ، ولنعفى على ما يلوكه حقدة المستشرقين من غمز دنىء لأجداد محمد ، فقد حلا لبعضهم أن يكيل المدح جزافًا لبنى شمس لينتقص بنى عبد مناف ، وكل أدلته ما تناقلته الكتب من كثرة مال بنى عبد شمس . ولو عرف هؤلاء أن حقوق السيادة ومغارم الفضيلة ، هى التى جعلت مال بنى عبد مناف نهب الراجين ومنال الطامعين لعرفوا أنهم يمدحونهم بما يظنونه موضع التقصير .

ولم تكن قلة المال – ذات يوم – مكمن الغميزة فى شرف أو رياسة لدى الأعاجم ، ممن ينكرون عامدين منازع الفتوة والمروءة لدى المساميح من أبناء عبد مناف . ولك أن تعجب حين تجد المستشرق الكاثوليكى (لامنس) ، يكتب تاريخًا مسهبًا (ليزيد بن معاوية) . لينتقص (الحسين بن على) ثم يعلو إلى (معاوية) مادحًا مباهيًا لينتقص (على بن أبى طالب) فإذا تحدث عن أبى سفيان بالغ فى

مآثره متوهمًا أنه يعد له برسول الله ، فإذا بلغ (حرب بن أمية) فضله ورفعه على (عبد المطلب) . وأنت تسأل فيم هذا الهيام العنيف ببنى أمية لدى القس الكاثوليكى العجيب ، فلا تجده غير التنفيس قليلاً عما يضطرم فى حناياه من بغض لنبى الإسلام.

لقد ورث محمد الفصاحة فيما ورث من سمات آبائه ، وقد مكن الله له من أفانين البلاغة والسداد والإفحام ، بما استطاع أن يبهر به قومًا قال عنهم (الجاحظ) واصفًا بلاغتهم المبدعة :

« وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه – العربى – إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حتى حين يمتح على رأس بئر أو يحدو ببعير أو عند المقارعة والمناقلة أو عند صراع حرب ، فما هو إلا أن يصرف وجهه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى إرسالاً ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحدًا من ولده ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأقهر ، وكل واحد فى نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى علم غيره واحتذى على كلام من قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ، ولا تحفظ ولا طلب وإن شيئًا الذى فى أيدينا جزء منه لبالمقدار الذى لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب وعد التراب ، وهو الله الذى يحيط بما كان . والعالم بما سيكون »[1] .

لقد أحسن شيخ أدباء العربية فى حديثه عن فصاحة العرب ؛ إذ وصف الأمر كما كان فى تدفق بيان وخلوص عبارة ، وإن من يوكل إليه إقناع من أنصف من

(١) « البيان والتبيين » ، ج ٣ ، ص ٢٥.

هؤلاء وإفحام من اتبع هواه دون إنصاف ، لسيد بلغائهم وأفصح رجالهم دون نزاع، ولم يقل رسول الله ﷺ : أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد مباهاة بالفصاحة ومفاخرة بالبيان ، فما كان أبعده عليه الصلاة والسلام عن المفاخرة والمباهاة ، ولكنه كان يعبر عن حقيقة خالصة ويجيب عن سؤال من سأله كيف يخاطب رجال القبائل على اختلاف لهجاتهم ، وتنوع ألفاظهم ، واختلاف مدلولاتها بين القبيلة والقبيلة ؟ كيف يخاطب هؤلاء بما يعجز عنه – عادة – القرشى الناشئ فى مكة والمتنقل إلى المدينة . دون أن يتعمق بطون القبائل ، قبيلة قبيلة حتى يلم بعشرات اللهجات المتضاربة ومئات الألفاظ المغلقة ، فيجيبه الرسول عن الحقيقة الماثلة دون تزيد ، حين يعلن أنه أفصح العرب ، ولد فى قريش ونشأ فى بنى سعد .

هذه النشأة القوية فى ربوع الفصاحة ، ومسارح البلاغة ، كانت بعض عوامل الإعداد الإلهى لنبيه الكريم ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وإذا كان عز وجل قد قدر عليه أن ينشأ هذه النشأة ليتمكن لسانه من الأداء المحكم عما يلهم خاطره ويجيش بنفسه من المعانى ، فقد قدر عز وجل أن يحيا حياة خاصة تساعد نفسه على الاتساع والعمق ، فيشعر مشاعر الدقيق الحس ، ويفكر تفكير المتفتح اليقظ ، ويرى كل عابرة وطائرة رؤية المتأمل المحيط ، لتكون تجارب حياته ومشاهد بيئته ، وصور الكون أمامه كتابًا مفتوحًا ، يقرأ فى سطوره ما لا يقرأ البسطاء من ذوى النظر المحدود . لذلك .. أورثه الله الظمأ الحار إلى المعرفة ، ومنحه من لدن شب عن الطوق هذا التساؤل المتطلع عن ألغاز الكون ومعمياته ، وأوسع له من ذات عقله ليفكر فيطيل التفكير ، ويتدبر فيمعن التدبر ، كما أوسع له من ذات نفسه ليحس الخلجة السانحة ، ويتأمل الومضة البارقة ويتسمع إلى أخفت أحاسيس الضمائر والمكنونات . أما تاريخ حياته يومًا فيومًا فمما ساعد على تقوية انتباهه ودقة شعوره ، وعمق حساسيته مساعدة كان من أثرها أن أصبح الداعية المختار إلى نشر دين الله

فى الأرض ، وأن يكون وحده المعنىّ بقول الله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾[1] ، وصدق الله .

لم يكد يتخلق ﷺ فى بطن أمه جنينًا ، يقتات قطرات الدم الخالص ، حتى فوجئت الأم الرءوم بما أثار شجونها من موت زوجها الحبيب ؛ فوجمت العروس الشابة وجومًا طبعها بطابع الحزن المرير ، وأخذ الجنين الحى فى أحشاء أمه يقتات لبنًا حزينًا يتحدر من نفس تحمل كوامن الشجن ، وتنطوى على أقسى ما تنطوى عليه عروس حسناء فجعت فى مشرق أملها ، وهى تتحسس بين أحشائها فلذة منه ، تضطرب مؤذنة بوجودها المتوثب إلى مشرق الضياء . ثم أهلّ الطفل المنتظر ليحيا فى كفالة جده ، لا فى رعاية أبيه ، وكانت مدة الحمل الحزينة ، قد تركت طابعها لا محالة فيما بعد فى نفس الطفل ، فلم تكن حياته الطويلة مجالاً للطرب والنشوة ، إنما كان ما وصفه أبو هالة متواصل الأحزان دائم التفكير ، ليست له راحة ، طويل السكوت . وقد كان فى صغره موضع العجب من عارفيه ، فإن مرضعته العطوف (حليمة السعدية) تقول عنه : إنه كان يقلق بالليل ، فلا يبكى ولا يصرخ ، ولكن سمة الضجر تطبع وجهه فتخرج به من الخيمة ، فيتطلع فى سرور إلى نجوم الليل ، وإذ ذاك ينفرج ضيقه ، فإذا شبعت عيناه من نور السماء أطبقهما وأخذ الكرى بمعاقد أجفانه[2] .

نشأ محمد فى بنى سعد ما نشأ ، ثم عاد الطفل المتأمل إلى أمه بعد الرضاع ، فخرجت به من مكة إلى زيارة قبر أبيه بالمدينة ، وبلغ من حساسيتها أنها لم تخبره – وهو غض نضير – بمكان القبر كيلا تثير تساؤله ، إنما تسللت إليه منفردة ، فذرفت من دموعها ، ثم كرت أدراجها إلى مكة والمرض يهدها هدًّا ، حتى إذا كانت فى

(١) سورة الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) « محمد رسول الله » ، ص ٧٤.

الطريق بالأبواء لفظت أنفاسها ، وتركت الصغير فى السادسة من عمره مع جاريتها (أم أيمن) كى تسلم اليتيم إلى جده (عبد المطلب) . أى صدمة تحملها الطفل حين فتح عينيه فوجد أمه تفارقه قسرًا لتوضع فى لحد بالأبواء . لم ينس الرسول هذا المشهد طيلة حياته ، فظل يراوده بين الفينة والفينة ، حتى إذا خرج فى عهده الأخير إلى الحديبية ناويًا دخول مكة ، تعمد النزول بالأبواء ، فوقف على قبر أمه وبكى ، فبكى لبكائه المسلمون . هذا الحزن الذى طاف باليتيم تجدد فى حياته مرات كثيرة ، تجدد حين فقد لعهد قريب جده ، ثم تجدد حين رأى الدنيا تحيطه بغرائب المنكرات ، من إثارة للحروب ، وشن للغارات ، وعسف بالضعيف ، واعتزاز بعصبية الجاهلية، ونزقها الأرعن ، فكان دائمًا يطيل التفكير فيما يرى ويسمع ، ويرى أن الحياة فى حاجة إلى إصلاح وتوجيه .

على أن هذه النشأة الجادة الحزينة ، جعلته يفكر تفكير الرجل المحنك وهو شاب يافع ، إذ أنس من نفسه انصرافًا عن دواعى اللهو وبواعث الطرب ، تقوم الأعراس بمكة ويخف الشباب أرسالاً إلى مسارح اللهو يصاحبون القيان ، ويستمعون الألحان ، ويشاركون فى العزف والرقص والشراب ، ومحمد عزوف عما ينشط له اللدات ، لا يحب أن يشارك فى اللهو ، ويراه عبثًا طائلاً لا يليق بمفكر ملهم مثله ، وقد حدثه اللدات عما تمثله الأفراح والأعراس من مغريات اللهو والطرب ، وطال الحديث مغريًا دائبًا ؛ فدفعه حب الاستطلاع إلى أن يذهب ذات مرة إلى مشاهدة ما يلهج به اللدات ، ولم يكد يأخذ مكانه حتى أخذه النوم ، فما أيقظه إلا وهج الشمس ، يقول المؤرخون : إنها معجزة ، وأقول مستعينًا ببسائط علم النفس : إن النوم كان حيلة لا شعورية تخلص بها محمد مما يكره ، لأنه ذهب إلى العرس بعد أخذ ورد من بعض رفاقه ، فحين وجد نفسه فى المكان ، وهو فى أطوائه غير مقتنع بما يرى من المناكر والملاهى ، تغلبت داعية الباطن على وعيه المتيقظ ، فكان النوم حيلة لا شعورية انتصر بها الضمير المستكن . وقيل فى بعض الروايات :

إن محمدًا ذهب إلى العرس فى شبابه مرتين ، فكان النوم هو ستارة الأمان ، والتعليل واحد فى موقفين متحدين .

هذا العزوف المشيح عن الملاهى ما خطبه ؟ لابد أنه كان يسأل نفسه فيطيل السؤال ، يسأل نفسه عن ضرورة القيام بإصلاح ينجى الناس من الشرور والآفات. ليس الأمر أمر عرس ولهو ، ولكنه أمر الحياة بما يصطخب فيها من آثام . ما هذه الخمور التى تراق فى كل مكان ، حتى إذا شربها العاقل عاد وحشًا هائجًا يقتل ويذبح ويعيث فى الأرض بالفساد . ما هذه الغارات التى تعبّأ فيها القوى وتتكتّل الجهود لينهب ملأ ملأ . تكون القبيلة آمنة فى خيامها ترعى الأم طفلها ، والكبير صغيره ، والصحيح مريضه ، ثم تصيح الصائحة فإذا خيل تغير ، وسيوف تشرع، ورماح تطعن ، ثم إذا الدماء سائلة ، والشباب صرعى ، والنساء أسرى ، والشيوخ والأطفال بلا مأوى . ما هذه الأوثان التى يعبدها الناس فى الكعبة ، إنها حجارة صماء ، صنعت بيد صانع فكيف تصير أربابًا تدير الكون وتسأل الخير وتدفع الشر ، وكيف يعبدها العقلاء وقد صنعوها بأيديهم ، ولو هم أحدهم لاستطاع أن يكسرها بفأسه فيجعلها حطامًا تذروه الرياح . أهى مع هذه المهانة آلهة خلقت الأرض والسماء ، وملكت الزرع والضرع والماء . من يصدق هذا ؟!

منافذ للتفكير كثيرة اتسع لها جنان هذا المتأمل الصامت . وقد بدأ بنفسه ، فأصلحها هداية من الله ، واستجابة لهواتفه الذاتية ، فلم يلعب ميسرًا ، ولم يشرب خمرًا ، ولم يسجد لوثن ، وكان مثال الأمانة والنزاهة ؛ حتى عرف بين الناس جميعًا بالصادق الأمين . ولكن هداية النفس وحدها لا تكفى ، بل لابد من هداية الناس . وكيف . دون ذلك أهوال .

كانت الأشعار الأدبية ترن فى مكة ، وتتجاوب بها أرجاء عكاظ ، ويسمر بها العرب فى أنديتهم راوين مباهين . ومحمد البليغ المبين لا يعيرها سمعه ، ولا يهش إلى خلابتها الرنانة ، وغزلها الرائق ، وحماستها المتأججة ، ولماذا ؟ إنها لا تهدف إلى

غاية ، ولا ترسم طريقًا لخير ، ففيم الاهتمام بها فى ملإ فاسد يعكف على الأباطيل ، وكانت الخطب المطيلة يرمى بها المقاول من البلغاء ، وقد تنكبوا القنا واعتجروا العمائم ، وشدوا الأوساط وأرخوا عليها العباءات .

ومحمد البليغ المبين يشيح عنها فلا يسمع ، ولا يستعيد . ففيم الاهتمام بها وهى تدعو إلى العصبية ، وتوقظ الفتنة وتتخذ سلاح الحروب . فكل متشدق لا يعنى بالحق ، ولا يلتزم الصدق ولا ينشد الإصلاح ، وإنما يرضى قومه ويتبع هواه .

لا شىء من ذلك يستهوى هذا المفكر الصامت . إنما الذى استهواه وظل يذكره حتى آخر سنى حياته ، خطيب من إياد وفد إلى عكاظ ، يحمله جمل أورق ، فتجمع حوله الملأ ، ورأى محمد فى سماته النبيلة ما جذبه إلى الاستماع إليه ، فأنصت ثم أنصت ، فإذا به يسمع ، وإذا القائل (قس بن ساعدة) يحذر الناس ببعض ما يجيش فى صدر الشاب المتأمل ، ويضرب الأمثلة بمشاهد الكون فيصيح :

« أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، إذا وعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة ، وأنهار مجراة ، إن فى السماء لخبرًا . وإن فى الأرض لعبرًا ، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ، أم تركوا فناموا ، يقسم (قس) بالله قسمًا لا إثم فيه ، أن لله دينًا هو أرضى له وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه ، إنكم لتأتون من الأمر منكرًا »[1] .

حديث شائق ، يسمعه النبى الشاب فيأخذ بمجامع نفسه . ويظل يتذكر صاحبه ، حتى يجىء إليه وفد عبد القيس بالمدينة ، فيسألهم عن (قس بن ساعدة) ، فيجيبونه فيتذكر موقفه فى عكاظ ثم يقول عنه : « يرحم الله قسًّا . إنى لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده »[2] .

(١) « جمهرة خطب العرب » ، ج ١ ، ص ٣٥.

(٢) « جمهرة خطب العرب » ، ج ١ ، ص ٣٥.

وكانت الاجتماعات السياسية والحربية والدينية ، تعقد فى دار الندوة وغيرها ، وتأتى أنباؤها إلى من لقبوه بالصادق الأمين ، فلا يسرع إلى شهودها ، ولو فعل لأخذ مكانه فى صدارة بنى هاشم ، أوسط أهل مكة حسبًا وأشرفهم مكانًا ، ولكنه يستمع إلى أنبائها فيشيح ، ويدعى لشهودها فيحجم ، وكأنه يتساءل ما يفعل القوم فى هذه الاجتماعات ، غير أن يشربوا الخمور ويلعبوا الميسر ويقتسموا الأزلام . ثم يخرجوا إلى صفقات الربا ، وغزوات السلب ، وأوكار البغاء ، وعبادة الأصنام .

وفى يوم يأتيه ، أن حلفًا عقد فى دار (عبد الله بن جدعان) يسمى : حلف الفضول ، يدعو لنصرة الضعيف ، وإحقاق الحق ، فيسرع إلى دار (ابن جدعان) فى شغف ويمد يده مع المجتمعين قيامًا فى شهر حرام ، يتعاهدون على ألا يظلم بمكة غريب ، ولا قريب ، ولا حر ، ولا عبد حتى يأخذوا له بحقه فيكونوا جميعًا مع المظلوم على الظالم شريفًا كان أم وضيعًا ، أو يبلغوا فى ذلك عذرًا ثم عليهم ألا يتركوا لأحد عند أحد فضلاً حتى يأخذوه متعاهدين على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى التآسى فى المعاش ، والتساهم بالمال[1] . ما هذا ؟ إنها الأغراض التى ينشدها ، والتى تخالجه وحيدًا حين يخلو إلى هواتفه ، فليحرص عليها مع الحريصين ، وقد مضت الأيام وقام بعبء الرسالة ، فحقق هذه الأغراض صادعًا بوحى ربه ، ولكن اجتماع حلف الفضول لم يبرح ذاكرته ، فهو يتحدث عنه بالمدينة قائلاً لصحابته : « لقد شهدت فى دار (عبد الله بن جدعان) حلفًا ، ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت » .

هذه بعض هواتف الشاب الصامت العزوف تراوده متقطعة بين الفينة والفينة، وقد ينجو منها أمدًا طويلاً مشتغلاً بالتجارة ، أو ناهضًا بأعباء المنزل والزوجة والولد ، ولكنها تعود وتلح عليه ، وتلحظ عليه خديجة زوجته أم المؤمنين ما يعتريه من الصمت المفاجئ والإطراق المتصل ، فتتساءل فى نفسها : فيم إطراق هذا

(١) « بلوغ الأرب » ، ج ٣ ، ص ١٢٥.

الإنسان النبيل الشهم ، إنه لنظيف كل النظافة فى مسلكه ، يقرى الضيف ، ويرعى الكلّ ، ويحمى الضعيف ، ويعين على نوائب الدهر ، وإنه لفى سعة من المال ، ورفاهة من العيش ففيم الإطراق الطويل ، وعلام الصمت والاعتزال . وإن اعتقادها الراسخ فى همامة نفسه وسمو مثله ليحدثها بشىء عجيب يوشك أن يحدث ، أو ليس (ميسرة) قد حدثها بمعجزة الغمامة ، وتلك لن تكون لإنسان عادى يأكل ويشرب ويغرق فى هموم الأكل والشراب ، غير متطلع إلى أفق أعلى تشرق فيه لوامع الحق والعدل والإحسان . لقد تحقق هاجسها الصامت ؛ فقد بدأ الزوج يواصل الاعتزال نازحًا عنها إلى غار حراء .

قد يظن ظان أن الذى نكتبه أدب متخيل لا حق واقع ، والحقيقة : أن مهمة الناقد أن يبحث الظواهر الغريبة فى حياة الأديب ، متلمسًا تعليلها المعقول ، والنبى ﷺ كان يطيل التفكير والتأمل ، فلابد من علة واضحة لذلك ، وكان ينأى مشيحًا عن أماكن اللهو والريب ، فلابد لذلك من سبب ؟ وكان لا يرحب بشعر الجاهلية فى الحروب ، والحماسة والغزل والهجاء ، ولا بخطبها فى الثأر والاعتزاز بالعصبية . وهى تحيط به عن شمال ويمين ، إنما يرحب بأنموذج معين من الخطب جاء على لسان قس . وباجتماع منصف قام به حلف الفضول لدرء المظالم .. لن يفعل ذلك إنسان خواء لا يفكر فى شىء ، بل لابد وراءه من نفس ذات عالية ، ومنازع رفيعة هيأها البارئ المصور لحمل رسالة السماء . ثم شاء لها أن تعتزل ، وتخلو قبل أن يضىء لها القرآن طريقها المشتبه ، ففيم كانت تفكر أثناء الاعتزال ؟ وكيف استطاع القرآن أن يجيب عن أسئلتها الغامضة ، فيكون لها بإجابته الشافية أكبر أستاذ ؟

إن الجبال العارية الجرد التى تحيط بمكة ليست مما يملأ العين جمالاً وبهجة ، فليست لها سفوح تزهر بالخضرة ، ولا تتوجها الثلوج أو تكسوها الأشجار ، وهى فى أتون الهجير تصلَى نارًا حامية تحيلها جمرة حمراء ، فإذا لفها الليل بظلامه بدت قاتمة دهماء ، وكأنما تسربلت بأثواب الحداد فى غير الليالى القمراء . إلى هذه القمم

الموحشة كان يسعى محمد بين الدروب والأزقة بمكة ، ليجلس فى غار منها متأملاً متعبدًا ، يفكر فيما هيأ الله نفسه له من عوالم الحق والخير والمعروف . كان يجد بعض العزاء فى أشعة الكواكب ، تنحدر برفق إلى مخدعه فى بعض الليالى ؛ فتؤنس وحشته وتسامر وحدته ، فإذا أطلق لعينيه أن تمتد وراء الجبال شاهد بساطًا من الرمل تصفعه الريح بسياطها الهوج ، فينتفض سياجًا هائجًا من الذر ثم يتبدد هباء .. إن بعض الذين كتبوا السيرة المطهرة من كتّاب الغرب – منصفين ومتحاملين – قد تصوروا مكة ذات حدائق ، وبساتين ، وجعلوا جبالها نمطًا أوروبيًّا تتوجه الثلوج آنًا وتحوك له الطبيعة أزهى الثياب من ريحان وأزاهير ، آنًا آخر ، وأخذوا يعللون رحلة محمد إلى الغار ، كما يعللون مواقف (لامرتين وجيته وهوجو وابن خفاجة) من طبيعة أوروبا ، وقد فاتهم شىء كبير مهم جدًّا هو الفرق الهائل بين مواقف الشعراء من عرب ومن عجم ومن الطبيعة ، وموقف سيد الأنبياء ، هؤلاء يقصدون إلى قمم الجبال ومعارج الأنهار ، وأبسطة الصحراء ليجدوا الأنس البصرى ، والراحة الذاتية فيما يشهدون من مسارح ، وليجعلوا الطبيعة بغاباتها وأشجارها وأزهارها منظرًا خلفيًّا لمشهد شعرى فى قصيدة غزلية ، أو ليجعلوها مسرحًا أنيقًا لقصة عاطفية . ما إلى هذا كان يذهب محمد حتى يقاس بسواه ، إنه كان ينظر إلى الطبيعة ليتساءل عمن صور الطبيعة : هذه النجوم ، هذا الجبل ، هذا الليل، هذا النهار ، كل ذلك رائع مهيب جليل . فمن أوجد هذه الروعة ؟ أخلقت من غير شىء ! أتمخضت عنها المصادفة . أيعقل أن توجدها أصنام لا تملك لنفسها ضرًّا ولا نفعًا .. وإن الوحدة الخالية لما يساعد النبى الموعود على اجتلاء غوامضه ، واستيضاح خوالجه ، وبالفعل .. كانت وحدة الغار بداية الطريق . ففيه بدأت الرؤيا الصادقة ، وفيه نزل الروح الأمين بالقرآن على قلب محمد ليكون من المرسلين .

أخذت آيات القرآن تتوالى ؛ فكانت الإجابة الشافية لكل ما جاش فى صدره من خواطر ، وفتح الرسول عينيه على هذا البيان الهابط من أرفع سموات ، فإذا به ينقذه من حيرته ، ويجيب على أسئلته ، ويؤيد وجهة نظره فى الحياة والأشياء . أليس محمد كان ينأى عن الأصنام ؟ لقد نزل بيان السماء بتحريم عبادة الأصنام . أليس محمد كان يشيح عن العصبية الحمقاء ، والتعالى بالأنساب ؟ لقد نزل بيان السماء بأن الناس من أصل واحد من ذكر وأنثى . إن العناية التى استخلصته لرسالة السماء ، قد طبعت بطابع السماء ، حتى إذا جاء زمان الدعوة صادف القرآن نفسًا ظامئة وقلبًا تائقًا ، وروحًا متطلعًا ، فروى الظمأ وشفى الغليل . وكان ذلك كله التفسير الصادق لقول الله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾[1] . إن الحيرة التى توزعت نفس الرسول قبل البعثة ، كانت الاستعداد الطيب من التلميذ المخلص لتلقى تعاليم الأستاذ المرشد . وها هو ذا الأستاذ الحكيم يجيب عن كل سؤال ، ويرشد إلى الطريق الأمثل : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[2] .

كان التلميذ المعتزل يرى دورات الليل والنهار ، وارتفاع السماء ، وانبساط الأرض ، وتفجير الأنهار ، وإرسال الرياح ، ونهوض الجبال ، وإجراء الرزق ، وبدء الخلق ، فيتساءل متلهفًا : أتم ذلك بدون مبدع ؟ أقامت به الأصنام الصم ؟ فتأتى إجابة الأستاذ دقيقة صريحة بمثل قول الله : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن

(١) سورة الضحى : ٧ .

(٢) سورة العنكبوت : ٤٨ ، ٤٩ .

تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ ۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾[1] .

وكان التلميذ المتأمل يرى الفجرة من الأعراب : يسرقون ويقتلون ويعيثون فى الأرض فسادًا ثم يموتون كما يموت الأبرياء الصالحون دون عقاب رادع ، أو جزاء منصف ، فيتعاظمه أن يتساوى البرَ والفاجر فى العاقبة . ويتساءل ألا يقوم هؤلاء ليوم ينتصف فيه المظلوم من الظالم ؟ وهل خلق الخلق سدًى ؟ فما هذه الدنيا إلا لعب ولهو ، وما يهلكنا إلا الدهر كما يزعم معاصرون ؟ إن أحاسيس أعماقه الدفينة بما برأها الله من إلهام نبوى لا تقر ذلك ، ولكنه يتطلع متسائلاً فى حيرته يريد التأكد والتثبيت ، فيأتيه الأستاذ بالبلسم الشافى حين ينزل عليه جبريل بمثل قول الله :

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ

(١) سورة النمل : ٥٩ : ٦٥ .

وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] .

وكان التلميذ المتطلع ينكر فى أعماقه ما اشتهر فى زمانه من وأد البنات ، وإظهار الفواحش ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ويريد أن يعلن حق اليتيم فى العون والرعاية ، وحفظ المال ، وينفر ممن يطففون الكيل والميزان ، ويحب العدل والقسط ، وينفر من الربا ، ويراه ابتزازًا دنيئًا . ثم ينظر فإذا الجاهلية مطبقة على غير ما يعتقد . يتطلع إلى من يشد أزره فى إصلاح يقوم به كما أسرع من قبل إلى الانضمام فى حلف الفضول ، ولكن السماء التى ألهمته ذلك ، ترسل آياتها المفصحة بمثل قول الله :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ

(١) سورة الزمر : ٦٧ - ٧٥ .

ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1] .

وبمثل قول الله من آيات محكمة :

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾[2] .

ثم يكون التلميذ الحريص فى حاجة إلى معرفة أحوال الأمم الغابرة ، والعصور الخالية ليضرب لقومه المثل ، وليأخذ لنفسه الأسوة ، فينزل عليه القرآن بقصص فرعون وهامان ، وقارون وأقوام نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط ويوسف وغيرهم من المرسلين : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[3] . ويلزم قومه الحجة بمثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ

(١) سورة الأنعام : ١٥١ - ١٥٣ .

(٢) سورة البقرة : ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٣) سورة يوسف : ١١١ .

لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾[1] . ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾[2] ؛ ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾[3] ثم يرد شبهتم المفتراة ، إذ يقول عمن عزوا إليه تعليم الرسول : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾[4] .

لقد أسهبنا بعض الشيء فى الاستشهاد بنصوص القرآن الكريم ؛ لنعلن أن هذا الكتاب المبين قد ملأ حياة الرسول ، وشغل عقله وقلبه ، وأورثه الحكمة والحجة والبيان ، ولم أراع التدرج الزمنى فى الاستشهاد بآيات القرآن ، بدءًا ونهاية لأنى فى هذا المجال لا أرصد خطوات التشريع خطوة خطوة ، فأبين مراقيها فى سلم الحياة النبوية ، فذلك شأن علماء التشريع ، إنما أختار نصوصًا قرآنية توضح أستاذية القرآن ، ولئن شاركتها كل نصوص القرآن فى الأستاذية والتوجيه فلست فى مجال الاختيار والتفضيل ، وكل كلام الله جيد مختار ، ولكنى أستشهد بما يفد على الذهن ويسد حاجة البحث ، وإن شابهه سواه .

لقد روى أن أبا بكر الصديق قال لرسول الله : لقد طفت فى قبائل العرب ، فما وجدت أفصح منك ، فمن أدبك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « أدبنى ربى ، فأحسن تأديبى » إن بعض الشراح يميلون بكلمة الأدب فى سؤال أبى بكر ورد الرسول إلى المعنى الخلقى . ولكنى أجد السياق صريحًا ينطق بأنها تخص المعنى الأدبى ، وإلا فما معنى قوله فما رأيت أفصح منك . والفصاحة هنا فصاحة المنطق بشقيه من اللفظ والمعنى ، إذ إن بعض البسطاء يتصورون الفصاحة خلابة لفظ ، وشقشقة بيان ، لئن تصورنا ذلك لدى بعض خطباء الجاهلية ممن وفدوا على

(١) سورة آل عمران : ٤٤ .
(٢) سورة القصص : ٤٦ .
(٣) سورة هود : ٤٩ .
(٤) سورة النحل : ١٠٣ .

(كسرى) باختيار (النعمان) ، فلن نتصوره إطلاقًا فى فصاحة رسول الله ، إذ إنها فصاحة العاقل المكين الذى أرشده القرآن ، وأفرغ عليه آلاف المعانى ، وفتح أمامه أبواب الإقناع والسداد ، فإذا تكلم فعن رصيد ضخم من التفكير الثاقب والمعرفة الغزيرة والدراية الكونية والتاريخية والفقهيه ، مما بسطه محكم الذكر الحميد . ومن هنا .. كان تعبير رسول الله دسمًا بمعناه مشرقًا بلفظه ، وتتابع المعانى وتسلسلها لدى البليغ المطبوع يجبر الألفاظ المنتقاة جبرًا ، ويسوقها مساقًا هادئًا كى تأخذ مكانها الطبيعى دون نشاز ، وما ضلّت الألفاظ لدى بعض الناس وصارت موضع اللجاج والجدل ، إلا لأنها لم تأخذ مكانها المحدد ، ولم تفصل على المعنى المراد أحكم تفصيل .

ولقد كانت معانى محمد فى إرشاداتها ربانية ، وكانت ألفاظه معرضًا رائعًا لمعانيه ، وإذا كان القرآن أستاذ معانيه ، فإن أثره عليه عظيم جليل .

على أن هذا الأستاذ – لم يتخل عن طبيعة المربى اليقظ فى شىء . فكان يقسو عليه فى بعض الأحيان قسوة الحريص محذرًا مصممًا ، مخافة أن يحيد التلميذ عن الطريق ، فهو يقرعه بمثل قوله .

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾[1] . أما إذا حاد عن الأولى فى شىء فهناك المحاسبة الصريحة تنطلق عالية مدوية لتقول :

(١) سورة الإسراء : ٧٣ - ٧٧ .

﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾[1] ، ولتقول: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] .

تلك نماذج من محاسبة الأستاذ ومراقبته ، وقد تركت أثرها القوى فى نفس التلميذ ؛ فكان يقرأ القرآن ، أو يسمعه وجلاً حذرًا متمعنًا ، عن (عبد الله ابن مسعود) رضى الله عنه قال :

قال لى النبى ﷺ : اقرأ على ، قلت : أأقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إنى أحب أن أسمعه من غيرى ، فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[3] قال : أمسك ، فإذا عيناه تذرفان . رواه الشيخان[4] ، ومع هذا الحرص البالغ فى موضع المؤاخذة ، فقد كان الأستاذ مشيدًا بتلميذه معددًا سجاياه ، مشجعًا إياه ، شأن المربى الناهض الذى يدفع أشباله المرموقين إلى الأوج ، مترقبًا غدهم البهيج ، يقول الله تعالى - وما أكثر

(١) سورة عبس : ٥ - ١١ .
(٢) سورة الأنعام : ٥٢ - ٥٤ .
(٣) سورة النساء : ٤١ .
(٤) « التاج » ، ج ١ ، ص ٩٦ .

ما قال عن نبيه : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾[1] .

وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[2] .

وقال : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[3] . وكان مثنيًا أعظم الثناء حين قال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[4] لقد سئلت عائشة عن أخلاق الرسول ، فقالت فيما قالت : « وكان خلقه القرآن » . أجل كان القرآن طمأنينة خاطره ، ومصباح عقله ، وملهم معانيه ، ومحدد اتجاهه ، ويا له من أستاذ !

* * *

(١) سورة الفتح : ١ ، ٢ ، ٣ .
(٢) سورة الفتح : ١٠ .
(٣) سورة الطور : ٤٨ .
(٤) سورة القلم : ٤ .

obeikandl.com